

الديمومة الزمنية في رواية هوامش الرحلة الأخيرة لمحمد مفلح

- بين وهم الثبات وحقيقة الانفلات -

Temporal permanence in the novel *Margins of the Last Journey* by
Muhammad Muflah

- Between the illusion of stability and the reality of chaos -

جاطة مسعودة¹¹ جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، messaouda.djatta@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/20 تاريخ القبول: 2022/05/25 تاريخ النشر: 2022/12/15

ملخص:

يبدو أن الحديث عن أمر الزمن - في مساره الدائم والمستمر - يأبى أن يقف، ويثبت على مفاهيم محددة، وتصنيفات نهائية تسهل علينا فهمه، واستيعابه من جهة، والتمثيل له من جهة ثانية، وربما يمكن أن نعزو ذلك إلى خاصية الانفلات التي نسمه، حتى أنها باتت إحدى أخطر سماته، جاعلة منه ذلك المنفلت الهارب، الزبقي المتغير، وهي الحقيقة التي أقر بها ثلة من الباحثين .

إن الاقرار بوجود مثل هذه الحقيقة هو ما دفعنا للبحث في موضوع الزمن في مقالنا هذا، محاولين من خلاله رصد بعض المفاهيم، والتصورات، والمخططات الجاهزة، والتي تعكس بدورها الاحساس الداخلي بديمومة الزمن من جهة، وتمثلها في المنجز السردي المختار، والموسوم : "هوامش الرحلة الأخيرة" لمحمد مفلح من جهة ثانية .

كلمات مفتاحية: الزمن؛ الثبات؛ الديمومة؛ الانفلات؛ الرواية.

Abstract:

The time factor is hardly tackled with in terms of its determined concepts and categories at its permanent and continuous levels. It is difficult to comprehend from one hand and to be represented from another hand. This can be due to its trait of chaos which became a dangerous characteristic that makes it loose and mercurial. This is proved by scholars .

To acknowledge this reality, we sought to study time factor in order to uncover its concepts, perceptions, and ready-made schemes. This study reflects the inner feeling of the time permanence from one hand, and in the selected narrative- *Margins of the Last Journey* of Mohamed Muflah from another hand.

Keywords: Time; persistence; permanence; chaos; novel.

المؤلف المرسل: جاطة مسعودة، الإيميل: messaouda.djatta@univ-biskra.dz

1 . المقدمة :

إن الخوض في غمار الزمن لم يستثن -تقريباً- أي مجال معرفي، ولعل الفلسفة، ومن بعدها الأدب قد كانا من أبرز المجالات، والحقول المعرفية التي زخرت بكم هائل من الدراسات، والأبحاث حوله، هذه الأبحاث التي برهنت -ولردح من الزمن- على أن أصحابها قد أبلوا بلاء حسناً في محاولة منهم لوضع مفاهيم، وتصورات تقريبية للزمن هذا من جهة، ومن جهة ثانية خلق، وابتكار تصنيفات، ومخططات جديدة تعكس في مجملها الوعي الداخلي به في مساره المستمر.

ومما لا يمكن إنكاره أن مثل تلك المفاهيم، والتصنيفات المتوصل إليها قد كان لها الفضل الكبير على كثير من الطلاب، والباحثين في موضوع الزمن، حيث عدوها السراج المنير لسبر أغواره، والتقصي عن بعض حقائقه، والجدير بالذكر أن كل هذه الجهود لرسم خطى ثابتة للزمن من قبل بعض أقطاب العقل البشري في حقلي الفلسفة، والأدب - خاصة - لم تخرج من دائرة "المحاولة" كونها عدت حلقة مكتملة لما قبلها، وحلقة ممهدة لما بعدها، غير أن المسعى الذي كانت تنشده تلك الأبحاث، والدراسات، والمتمثل في خلق اطر ثابتة للزمن، سرعان ما تحول إلى "سراب" جعلها تقع في "الفخ"، الفخ الذي ارتأينا أن نسميه "وهم الثبات"، هذا الوهم الذي اثبتت وجوده "حقيقة انفلات الزمن وهروبه" من قبضة كل من تحول له نفسه الإمساك عليه وجبسه في مفهوم ثابت أو مخطط قار .

إن الاقرار بوجود مثل هذه الحقيقة يستدعي منا -وفي هذا المقام- استحضار مقولة الناقد "ميشال بوتور"(*) : «إن الأبنية الزمنية هي في الواقع من التعقيد المضني، بحيث أن أمهر المخططات سواء كانت مستعملة في تحضير العمل الأدبي، أو في نقده لا يمكن أن تكون إلا مخططات تقريبية عادمة الإلتقان، غير أنها تلقي شيئاً من الأضواء المزيلة للغموض». (التواتي، 1986، صفحة 121)

إن وجود مثل هذه العقبة هو من ألزمتنا بأن نعترف -في مقالنا- بأننا لا ندعي ابتكار رؤى، وتصورات جديدة تعكس الشعور بالزمن في ديمومته، بقدر ما نسعى جاهدين لرصد بعض التصنيفات

(*)أديب وشاعر فرنسي ، يعد من أهم كتاب الرواية الجديدة في فرنسا ، من أهم أعماله نذكر: ممر ميلانو (1954) ، وجدول الوقت (1956) ، والتعديل (1957).

والمخططات الجاهزة كخطوة نظرية، ومحاولة تمثلها في الخطاب الروائي المختار: "هوامش الرحلة الأخيرة" لمحمد مفلح كخطوة عملية .

- من البديهي أن وجود صعوبة في أمر ما، يتولد عنه -حتمًا وبالضرورة- فيض من التساؤلات، والإشكاليات، التي حامت حول بحثنا متمركزة في أربع نقاط على النحو الآتي :
- 1- إذا كان ثمة أزمة في تحديد مفاهيم ثابتة للزمن، فمن أين تبدأ هذه الأزمة ؟ وإلام تعزى ؟
 - 2- كيف شكلت التصورات الفلسفية، والأدبية للزمن ذروة لهذه الأزمة ؟
 - 3- فيم تمثلت المخططات، والتصنيفات، والتي توهم أصحابها - من خلالها طبعاً - بانفراج هذه الأزمة ؟
 - 4- كيف أدرج "محمد مفلح" مقولة الديمومة الزمنية في روايته الموسومة بـ "هوامش الرحلة الأخيرة؟ وما هي المخططات التي اعتمدها ؟

2. المفهوم اللغوي لمقولة الديمومة الزمنية (بداية الأزمة)

إنه ليس ثمة تعريف واضح، وجلي للمقولة في القواميس التي أتيح لنا الاطلاع عليها، لذا حاولنا تقسيم المقولة الى جزأين، والبحث عن شرح، وتعريف واضح لكل جزء، ومن ثم السعي لخلق علاقة بين التعريفين، كل هذا لم يكن لغاية سوى تقريب الرؤية، وإيضاح الصورة بشأن التعريف اللغوي للمقولة .

فعن الجزء الأول من المقولة، ونعني به مصطلح "الديمومة"، فنجدته قد ورد في قاموس "لسان العرب لابن منظور" بمعنى: «المفاضة لا ماء فيها، والديموم، والديمومة: الفلاة الواسعة». (منظور، د.ت، صفحة 303)

أما عن الجزء الثاني من المقولة ، أي مصطلح " الزمن " فنجدته قد عرفه بأنه : "اسم لقليل الوقت وكثيره" (منظور، د.ت، صفحة 60)، غير أنه عرض لنا الخلاف الواقع بين بعض أعلام اللغة العربية حول إشكالية مصطلح " الزمن " من حيث المعادل الموضوعي له، والذي بإمكانه ان يتفق معه في دلالة الديمومة، والاستمرارية، إذ نجدده يقول: « وقال شمر: الدهر والزمان واحد، وقال ابن الهيثم : أخطأ شمر، الزمن زمان الرطب والفاكهة، وزمان الحر والبرد، قال: والدهر لا ينقطع، قال أبو منصور: الدهر عند العرب يقع على وقت الزمان من الأزمنة، وعلى مدة الدنيا كلها، قال : وسمعت غير واحد من العرب

يقول: أقمنا بموضع كذا، وعلى ماء كذا دهرًا، وإن هذا البلد لا يحملنا دهرًا طويلًا ، والزمان يقع على مدة ولاية الرجل ، وما أشبهه»(منظور، د.ت، صفحة 60).

نلاحظ من خلال ما أوردناه سابقًا من تعريف لغوي للزمن أن ثمة خلافًا واضحًا، وجلي بين بعض علماء اللغة أمثال شمر، وابن الهيثم، وأبي منصور حول مفردتي (الزمن) و(الدهر)، إذ نجد أن ثمة من يرى أن " الزمن " هو ذاته " الدهر " ، وبالتالي فإن ديمومة الزمن تضاهيها ديمومة الدهر ، في حين يرى بعضهم بأن " الزمن " هو جزء من " الدهر " ، بحيث يجزمون على أن " الدهر " لا ينقطع ، أي إنه دائم ، ومستمر ، بينما " الزمن " مؤقت ، ومنقضي ، بمعنى أن الأخذ بهذا الرأي يلزمنا بالقول بأن ثمة " ديمومة للدهر " لا " ديمومة للزمن " .

3. المفهوم الاصطلاحي للمقولة/ رحلة الزمن من الوعي إلى الكتابة (ذروة الأزمة)

يبدو أن أزمة تحديد مفهوم قار، وثابت لمقولة " الديمومة الزمنية " لا تتوقف عند حدود المفهوم المعجمي القاموسي، بل تمتد لتشمل المعنى الاصطلاحي لها، أي أن أزمة المفهوم تبدأ مع المعنى القاموسي، وتبلغ ذروتها مع المعنى الاصطلاحي لتأخذ منحني تصاعديا معقدا يصعب معه فهم واستيعاب المقولة من جهة ، ووضع مخططات ثابتة تعكس الوعي الداخلي بها من جهة ثانية ، ويمكن أن ننسب منطلق الأزمة ومبعثها الأول —هذه المرة— إلى قضية ومسألة وجود الزمن من عدمه، إذ نجد أن ثمة من الباحثين من يفضل أن يطرق باب هذه المسألة قبل أن يبدأ رحلته إلى فضاء الزمن، وذلك بطرح جملة من التساؤلات لعل أبرزها: "... هل الزمان في كل هذا عملاق يستوعب الوجود، والعقل معا، أم إنه ليس هناك شيء اسمه الزمان ؟ وأنه مجرد إطار تصوري ابتدعه عقل الإنسان لينظم إدراكه للأحداث"(الخولي، 2014، صفحة 10).

إن أمهر أقطاب العقل البشري نجدهم قد أعلنوا فشلهم الذريع في تقديم إجابات مقنعة لجملة من التساؤلات أبرزها : ما الزمن ؟ وأين يقيم ؟ ومميتكون ؟ وما أهم سماته ومسمياته ؟ وهل ثمة مخطط ثابت يعكس الاحساس الداخلي به وبشكل نهائي ؟.

لقد اخترنا أن تكون البداية مع ما قاله أوغستين: "... فما هو الزمن يا ترى ؟ من يفسره بسهولة واقتضاب ؟ من يستطيع أن يكون له عنه ، ولو في الذهن ، فكرة واضحة يمكن أن يعبر عنها باللفظ ؟ لكن أي مفهوم يتردد في حديثنا مألوف ، ومعروفا أكثر من الزمان ؟ نحن نفهمه ، لعمري ، عندما نتحدث عنه ، ونفهمه أيضا ، عندما نسمع غيرنا يتحدث عنه . ماذا هو الزمان إذن ؟ إن لم يسألني عنه أحد ، فأنا أعرفه ، وإن أردت أن أفسره للسائلين لم أعرفه" (أوغستين، 2012، الصفحات 374 - 375).

فالزمن - وفقا لوجهة نظر "جان بوديار" - لا يعدو أن يكون مجرد لعبة قواعد مغيبة، أي أنها تحكم على كل من تخول له نفسه بممارستها بالفشل الذريع ، ومن أول جولة .

وتتواصل أزمة الزمن من حيث التأسيس له بوصفه قارا ، وثابتا ، ليستمر بذلك نعت هذه الأزمة بمسميات غريبة - إن صح التعبير - كونها تبعث على الخوف من هذا الكائن المخير ، فهذا هو الفيلسوف الفرنسي " هنري برغسون " يقول واصفا معضلة الزمن : "إن الزمن هو المعضلة الأساسية في الميتافيزيقا ، وعندما تستطيع الإنسانية أن تقدم إجابة واضحة عن سؤال الزمن ، فإنها تستطيع تجاوز كل الإشكاليات، والمعضلات الوجودية التي تواجه حياة الإنسان والبشرية جمعاء" (وطفة، 2021).

نفهم من قول " هنري برغسون " السالف الذكر أن حل شفرة الوجود (الكون) مرهون بحل شفرة الزمن ، وكأني بالزمن هو رأس الخيط لمعضلات متتالية ، ما إن يسحب رأس هذا الخيط حتى تنجر وراءه جميع المعضلات ، والمسائل التي لطالما واجهها الإنسان ، والبشرية جمعاء ، ولقد وسم " برغسون " الزمن بالشمولية حين ساوى بينه وبين جميع المعضلات والإشكاليات التي تواجه الإنسانية قاطبة ، ولأن حله - في هذه الحالة - يتطلب جهدا مضاعفا ، ومن أطراف عدة ، كون شمولية معضلة الزمن تتطلب بالضرورة شمولية في الرؤى ، فالرؤية الأحادية ، والتصور الفردي لا يمكنه حل المعضلة إلا من زاوية واحدة . ويتواصل تباري الباحثين ، وتنافسهم في التفنن في خلق ورسم صورة أشد تعقيدا ورعبا - إن صح التعبير - لأزمة الزمن ، فهذا هو المفكر ، والباحث " إبراهيم زكريا " ينعت هذا الكائن المخير (أي الزمن) بقوله : "فلسنا نحن وحدنا صرعى الزمان ، وإنما الزمان كالموت حق على كل حي ، فهو يعمل عمله في كل موجود ، وهو ينخر كالسوسة في باطن كل كائن محدود" (زكريا، د.ت، صفحة 78).

تشير عبارة (الزمان كالموت) الواردة في هذا القول السابق إلى رزمة من الدلالات - على حد تعبير الناقد الفلسطيني عمر عتيق - أبرزها : أن حتمية وجود الزمن تضاهي حتمية وجود الموت ، فكلاهما وجوده محير ، ومؤلم في الآن ذاته ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال التخلص منه ، أو على الأقل إيجاد حل - ولو مؤقتا له - ، فإذا كان " الموت " يشكل السر رقم واحد في الوجود ، فإن " الزمن " هو السر رقم اثنين ، والذي إذا حلت شفرته ، حلت معه شفرة سر " الموت " ، وهو الأمر الصعب المنال ، بل من المستحيل الإتيان به وتحقيقه بسهولة.

إن مثل هذه السمات التي اتصف بها " الزمن " من قبيل : الغموض والانفلات ، قد حضرت في الخطاب الروائي الموسوم بـ " هوامش الرحلة الأخيرة " لمحمد مفلح ، وبقوة ، وهذا ما بدا واضحا في قول الروائي على لسان " معمر " إحدى أهم شخصيات الرواية : « ... كان الزمن وقتذاك غامضا ، ويجري بهموه في كل الاتجاهات ... هذا الزمن العنيف ، لم يشفق علي ، أخذ طفولتي الشقية وفر داخل ذاكرتي المفجوعة » (مفلح، 2012، صفحة 7).

في ختام هذه المحطة يمكن القول إنه ليس ثمة إمكانية لتحديد مفهوم لغوي ، أو اصطلاحية لمقولة " الديمومة الزمنية " ، وأن كل ما أوردناه من تصريحات هامة لبعض أعلام الفلسفة ، والأدب ، والفيزياء بشأن هذه المقولة لا يعدو أن يكون مجرد توصيف ، ونعت لهذه المقولة ، وتباري ، وتنافس حول أيهم يتفنن ويبرع في رسم صورة أكثر رعبا ، وأشد إثارة لهذا الكائن المحير والغامض (الزمن) . فقد وصف تارة بالموت ، وتارة باللعبة المغيبة القواعد و تارة أخرى بالشبح ، والأعمى ، والسديمي ، وكأني بالزمن قصر أشباح يحرم الدنو منه.

والغريب في الأمر أن " الزمن " برغم ما اشتمل عليه من توصيفات مرعبة مخيفة ، إلا أن الإنسان تمكن من معاشرته ، والتعايش معه ، وهذا يدل على وجود احتماليين اثنين : أولهما : أن الزمن رغم أنه مخيف ومرعب ، إلا أنه يفتقد لخاصية " الخطورة " ، والتي من المحتمل أن يلحقها بكل من تسول له نفسه الدنو منه .

ثانيهما : أن للزمن خطورة ، غير أن الإنسان - وبفضل عقله ووعيه ، وحكمته وقوة إيمانه ، وشدة تمسكه وتشبثه بالحياة - تمكن من معرفة الطرق التي إن انتهجها بطريقة صحيحة ومجدية نجا من هذه الخطورة وبأقل الخسائر المحتملة ويبقى - على حد تعبير الناقد عبد المالك مرتاض - باب البحث في مفهوم " الزمن " شارعا لكل مجتهد ، ولكل مفكر ، غير أن ما نؤكد في هذه اللحظة هو استحالة العثور على مفهوم قار ، وثابت للزمن ، وهذا ما عبر عنه " باسكال " بقوله : "إنه من المستحيل ، ومن غير المجدي أيضا تحديد مفهوم للزمن"(مرتاض، د.ت، صفحة 263).

4.مخططات الزمن وتصنيفاته (وهم انفراج الأزمة):

إنه وبعد أن عجز بعض المفكرين - السالف ذكرهم - في فتح أحد أهم أبواب " الزمن " ، والذي يمكنهم من الاطلاع على مفهومه وبالتالي تحديد ماهيته ، وحقيقته ، معلنا بذلك رفضه منحهم بطاقة هويته، قرروا عدم الاستسلام ، وذلك بمواصلة البحث في عالم " الزمن " المبهم ، من خلال العزم على طرق أبواب أخرى عساهم أن يفلحوا في العثور على أوراق ثبوتية أخرى للزمن ، بدل بطاقة الهوية التي انفلتت من قبضتهم ، ومن الأبواب التي شرعوا في دقها ، باب إقامة الزمن ، والمتمثل في "الذاكرة" ، وباب تفصلات الزمن ، وامتداداته ، والمتمثل في المخططات الثلاث (الماضي - الحاضر - المستقبل) ، وباب المسميات ، المتمثل في (الزمن الذاتي ، الزمن الشخصي ، الزمن النفسي ، الزمن السيكلوجي) ، ومن خلال هذه الأبواب الثلاثة تمكن بعض الباحثين والمفكرين من الاجتهاد في خلق ، وابتكار مخططات ، وتصنيفات تقريبية ونسبية ، تحاكي الزمن في ديمومته ، واستمراريته ، موهمة إياهم بأنهم تمكنوا أخيرا من حل معضلة " الزمن " ، وبالتالي انفراج الأزمة.

أما عن الباب الثاني وهو باب " الذاكرة " مقرر إقامة " الزمن " ، فنجدها هي الأخرى قد حظيت بفيض من الدراسات ، والأبحاث شأنها شأن الزمن ، ومن المفكرين الذين تطرقوا إليها بالدرس ، والتحليل نجد " القديس أوغستين " ، والذي نلفيه يعرفها بقوله أنها ذلك الوعاء : "الذي يحتوي على العلاقات ، والقوانين اللامحدودة للأعداد والمقاييس ، ولا شيء منها انطبع فينا بواسطة حس جسماني ،

فهي لا لون لها ، ولا صوت ، ولا رائحة ، ولا طعم ، ولا هي باللموسة" (أوغستين، 2012، صفحة 313).

نفهم مما قاله أوغستين أن صورة " الذاكرة " في وعينا هي الأخرى كالزمن تفتقد لصورة لغوية تمثلها، أو بالأحرى تعكس الاحساس الداخلي بها ، وهذا ما يتنافى مع قول " الغزالي " الذي يؤكد - من خلاله - أن لكل صورة نفسية داخلية لفظ يمثلها - سواء كان هذا اللفظ مكتوبا ، أو شفويا - : "ومهما ارتسم في النفس مثال (الشيء) ، فهو العلم به ، إذ لا معنى للعلم إلا مثال يحصل في الحس ، وهو المعلوم" (الشيدى، 2011، صفحة 37). ويواصل " القديس أوغستين " محاولته تبسيط هذا المفهوم الصعب والمعقد للذاكرة ، وذلك بإيجاده لصورة مشابهة لها ، والتي تبرز في قوله : « ... لا غرو إذن أن تكون الذاكرة بمثابة معدة الروح ، والفرح والحزن بمثابة الطعامين الحلو والمر : فعندما يبلغ هذان الشعوران إلى الذاكرة ، فكأنني بهما ، بعد أن يحلا بالمعدة ، يستطيعان أن يظلا هناك دون أن يكون لهما طعم ، وليس من الجد القول بكون هذه الأشياء تشبه تلك ، لكنه مع ذلك لا يوجد فرق كبير بينهما» (أوغستين، 2012، صفحة 315).

يبدو أن سمة التعقيد ، والإبهام والصعوبة تأتي إلا أن تلازمنا، حتى ونحن نبتعد عن الزمن ، ونقترب منه في الآن ذاته ، وهذا من خلال حديثنا عن " الذاكرة " موطن الزمن ومسقط رأسه ، والتي فضل الفيلسوف الفرنسي " هنري برغسون " تناولها بالدرس ، مقسما إياها إلى نوعين اثنين هما :

أ - ذاكرة البدن ، أو (الذاكرة الآلية) : مثل التي يمتلكها الحيوان ، الذي يفتقد إلى الذاكرة الروحية ، ويعزو هذا إلى أن : "الزمان الذي يعيش فيه ضيق الرقعة ، فهو لا يكاد يمتد إلى الأمام ، أو إلى الخلف إلا النزر اليسير ، ومعنى هذا أن الحيوان حتى حينما يعمل من أجل المستقبل ، فإنه لا يملك في ذهنه أي " تصور " حقيقي للمستقبل ، كما أنه حينما يتأثر في سلوكه بأصداء الماضي ، فإنه لا يملك في ذهنه أي تصور حقيقي للماضي، بل كل ما هنالك أن آثار التجارب السابقة قد تتردد في نشاطه الحاضر" (زكريا، د.ت، صفحة 62)

ب - ذاكرة النفس أو (الذاكرة الروحية) : وهي الذاكرة التي يمتلكها الإنسان ، وهي ذاتها التي تحدث عنها " القديس أوغستين " فيما سبق عرضه .
نأتي الآن إلى طرق ثالث أبواب " الزمن " ، والمتمثل في أهم تمفصلاته ، وامتداداته ، التي أجمع غالبية الباحثين - في تيمة الزمن - على تمركزها في المحطات الثلاث والمتمثلة في : الماضي ، الذي نعجز عن استعادته ، والحاضر وهو عبارة عن لحظة آنية يستحيل الإمساك بها ، والمستقبل الذي يصعب التكهن به كونه لم يأت بعد .

إن المتتبع لأهم ما قيل عن هذا الباب من قبل بعض رواد الفلسفة ، والأدب يلحظ أنه هو الآخر (أي باب تمفصلات الزمن وامتداداته) لم يخل من سمة الغموض والتعقيد ، والتي لازمتها جاعلة منه بؤرة للتساؤل حول عدة قضايا تتعلق به ، ومن أهمها تلك القضية التي تتمحور حول : أي من امتدادات الزمن وتمفصلاته موجود ، وأي منها عديم الوجود (أي غائب) ، إلى جانب قضية قياس الزمن ، والتي اتخذت كحجة للبرهنة على وجود صيغة زمنية دون أخرى ، كل هذا سيتم التطرق إليه من خلال الأقوال الآتية ، ونبدأها بقول " القديس أوغستين " : "... إن قولهم الأزمنة ثلاثة الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، قولة ليست مضبوطة ، بل قد يكون من الأنسب ان نقول : الأزمنة ثلاثة ، حاضر هو حاضر الماضي ، وحاضر هو حاضر الحاضر ، وحاضر هو حاضر المستقبل . إن هذه الصيغ الثلاث يوجد بعضها مع بعض في الفكر ، ولا أراها في غيره ، فحاضر الماضي الذاكرة ، وحاضر الحاضر النظر ، وحاضر المستقبل الترقب . إن صح ما قلناه رأينا ثلاثة أزمنة بها نقر بها نعم هي ثلاثة " (أوغستين، 2012، الصفحات 382 - 383).

إن المتصفح - لما سبق عرضه - يفهم أن "الحاضر" هو الصيغة الزمنية التي بإمكانها الجمع والربط بين صيغتي " الماضي " و " المستقبل " ، وهذا ما أكدته الناقد "عبد المالك مرتاض " في قوله بأن علماء النحو العرب حين تابعوا دلالة اللغة على الحدث والفعل والحركة لاحظوا : « أن الزمن لا ينبغي له أن يجاوز ثلاثة امتدادات كبرى : الامتداد الأول ينصرف إلى الماضي ، والثاني يتمحض للحاضر ، والثالث يتصل بالمستقبل ، وربما كان الحاضر أضيّق الامتدادات وأشدها انحصارا بحكم قوة الأشياء ، إذ كان هذا

الحاضر مجرد فترة انتقاله تربط بين مرحلتين اثنتين لا حدود لهما : هما الماضي والمستقبل»(مرتاض، د.ت، صفحة 264).

لقد تم اعتماد كثير من كتاب الرواية العربية للزمن السايكولوجي هذا المظهر الحدائي في رواياتهم ، والتي انضوت - في مجملها - تحت لواء ما اطلق عليه بـ "رواية تيار الوعي" ، والتي نجدها قد أخذت عدة مفاهيم وتعريفات ، ونذكر من بينها : « رواية تيار الوعي هي محاولة لتقديم داخلية الشخصية على الورق ، ككل فن روائي ، والاقتراب قدر المستطاع إلى محاكاة هذه الداخلية اعتمادا على ما تعرفه من علم النفس الحديث ، وربما أحيانا ، اعتمادا على كشوفات علم النفس الحديث ، وتأثرا بمفاهيمه ، فتتصور عدم الانتظام في هذه الداخلية ، واشتباكها وفوضاها وبدائيتها ... ونحن حيال شخصية روائية على الورق أو محاكاة " ورقية " لهذا " اللحم والدم " لا شخصية حية من لحم ودم»(غنايم، 1993، صفحة 11).

من اللافت للانتباه أن مثل هذا التعريف لهذا النوع من الكتابة الروائية يبقى قاصرا وغير واضح ، إذ لا بد لنا من عرض بعض المفاهيم المتعلقة بكل من مصطلح " الوعي " ، وكذا مصطلح " تيار الوعي " ، فعن مصطلح " الوعي " - الذي يرى وليم جيمس أنه يتسم بعدم الانتهاء ، وعدم الاستواء - نجد الكاتب " همفري " يعرفه بقوله : " هو العملية العقلية بأسرها ، على جميع مستوياتها من أسفل إلى أعلى ، وبخاصة مستوى ما قبل الكلام"(غنايم، 1993، صفحة 10)، أما عن مصطلح " تيار الوعي " فيعرفه " روبرت همفري " على أنه ذلك : « المصطلح الذي يفيد علماء النفس ، وقد ابتدعه وليم جيمس . ومن الواضح أن هذا التعبير أكثر ما يكون فائدة عندما يطبق على العمليات الذهنية ... ومصطلح تيار الوعي كرمز أدبي يستخدم للدلالة على منهج في تقديم الجوانب الذهنية للشخصية في القصص »(همفري، 2000، الصفحات 21 - 22).

كما ويؤكد " روبرت همفري " على أن أسرع طريقة للتعرف على هذا النوع من الروايات هو مضمونها ، بحيث : « يحتوى المضمون الجوهري لها على وعي الشخصية أو أكثر ، أي إن الوعي المصور يخدمنا باعتباره " شاشة " تعرض علينا المادة في هذه الروايات »(همفري، 2000، صفحة 22).

تأسيسا على ما تم طرحه ، يمكن اعتبار رواية " هوامش الرحلة الأخيرة " لمحمد مفلح نموذجا حيا -وتمثيلا رائعا - وبامتياز لهذا النوع من الكتابة الروائية ، والمسماة " رواية تيار الوعي " كونها تعرض - وباحترافية واضحة - فيضا من الأفكار ، والأحلام ، والهواجس القابعة في ذهن شخصية " معمر " ، والتي تظهر لنا من أولى صفحات الرواية ، هذا الظهور الذي كان تم من خلال توظيف الروائي " محمد مفلح " الجملة من التقنيات التي تميز بها هذا النوع من الكتابة الروائية ، ولعل أبرزها تقنية " الحوار الداخلي " أو " المونولوج " الذي يعرف على أنه ذلك : « الكلام غير المسموع ، غير الملفوظ الذي تعبر به الشخصية عن أفكارها الباطنية التي تكون أقرب إلى اللاوعي ، وهي أفكار لم تخضع للتنظيم المنطقي لأنها سابقة لهذه المرحلة ، ويتم التعبير عنها بعبارات تخضع لأقل ما يمكن من قواعد اللغة لكي توحى للقارئ بأن هذه الأفكار هي عند ورودها إلى الذهن » (سليمان، 2013).

إنه وعطفا على ما سبق طرحه ، يمكن القول بأن " المونولوج " هو الحلقة المركزية ، والنواة الرئيسية التي يمكنها أن تحيلنا إلى الماضي (الاسترجاع والاستدكار) ، أو تحيلنا إلى المستقبل (الاستباق والاستشراف) ، أو إلى الأحلام بنوعها (حلم اليقظة وحلم النوم) ، وأن مثل هذا الطرح هو من ساعدنا في وضع (المخطط رقم 01).

5. قراءة مفصلة في مخطط الديمومة الزمنية لرواية " هوامش الرحلة الأخيرة " لمحمد مفلح :

لقد تم التمثيل لتكنيك " الحوار الداخلي / المونولوج " في المخطط بشكل هندسي هو " الدائرة " وذلك لوجود روابط تجمع بينهما ، والمثلة في النقاط الآتية :

- 1 - أن لكل منهما (أي المونولوج والدائرة) مركزا ثابتا لا يتغير ، فمركز " المونولوج " مثلا هو " النفس " تلك المحطة الثابتة في " المونولوج " التي منها تنبعث بقية المحطات المثلة في كل ما من شأنه أن ينتمي إليها ، ويتصل بها اتصالا مباشرا من قبيل " الاسترجاع " ، و " الاستباق " ، و " الأحلام "
- 2 - أن لكل منهما (أي المونولوج والدائرة) ثلاثة قضايا رئيسية لم يتم حلها والفصل فيها لحد الساعة ، فبالنسبة للدائرة مثلا نجد أن مسألة (ترييع الدائرة وتثليث الزاوية ، ومضاعفة المكعب) تعد من أبرز المسائل الرياضية والمواضيع التي حاول فيها الرياضيون على مر العصور إلى أن أثبت " بييروانترز "

و"فيردينونديونليندمان " استحالة تلکم المسائل، أما بالنسبة للحوار الداخلي فقد شكلت تقنية " الاسترجاع " إلى جانب تقنيتي " الاستباق " و" الأحلام " أهم قضاياها ومسائله التي تعدد مفهومها وصعب تحديد ماهيتها ونقطة الانطلاق والوصول فيها والكامنة في ذهن الانسان وذاكرته .

3 - أن الإطار العام الذي يوجد فيه " المونولوج " لا يمكن التكهن بجميع المحطات التي تشكله ، كما لا يمكن معرفة أي من هذه المحطات (الاسترجاع - الاستباق - الأحلام) تشكل البداية ، وأي منها تشكل النهاية في هذا الإطار ، كما أن هذه المحطات - في اجتماعها - غير كافية لرسم هذا الإطار المحيط بالحوار الداخلي - وبشكل كامل-، كذلك هو الشأن بالنسبة للدائرة فإن الإطار الذي يرسم شكلها والمسمى " المحيط " يشتمل هو الآخر على مجموعة غير منتهية من النقاط، ولربما هذا ما جعل الرياضيين ينعنون هذا الشكل الهندسي بأنه: «قطع ناقص تلاشت بؤرتاه في نقطة واحدة ... كما أن الدائرة عرفت بوصفها مضلعاً منتظماً لانحائي الأضلاع».

عطفا على ما سبق يمكن القول بأن إسقاط مثل هذا التعريف الرياضي للدائرة - السالف الذكر - على المفهوم النقدي للحوار الداخلي ، يجعلنا نخلص إلى أنه هو الآخر عبارة عن تكنيك ناقص تلاشت بؤرتاه في نقطة واحدة قد تصنعها إحدى التقنيات المشكلة لإطاره ، وعليه فإن هذه النقطة (أي التقنية) قد تحمل سمة إحدى قطبي هذه الثنائية الضدية الممثلة في (الانطلاق ، الوصول) أو (البداية ، النهاية). إن ارتباط إحدى المحطات الثلاث الرئيسية (الاسترجاع ، الاستباق ، الأحلام) بقطبي الثنائية الضدية (الانطلاق ، الوصول) يجعلنا نتوقع وجود ست فرضيات لمخطط " الديمومة الزمنية " ، والذي يمثل فيه " المونولوج " - كما أشرنا سابقاً - مفترق الطرق أو بالأحرى العصب الوتيد والنواة الرئيسية له. وفيما يلي عرض للرسوم التوضيحية التي تترجم مخططات الديمومة الست ، والتي ما كان لنا التوصل لها لولا وجود تلك الفرضيات الست والمشار إليها سابقاً.

ملاحظة: إذا افترضنا أن تقنية الاستباق يمثلها العنصر (أ) ، وتقنية الاستباق يمثلها العنصر (ب)، وتقنية الأحلام يمثلها العنصر (ج) حصلنا على الاحتمالات الآتية :

$$1- أ ب ج أ \quad 2- أ ج ب أ$$

- 3- ب أ ج ب
4- ب ج أ ب
5- ج أ ب ج
6- ج ب أ ج

إن وجود مثل هذه الاحتمالات هو من ساعدنا في صياغة ، ووضع هذه المخططات والتي نجعلها في (الجدول رقم 03).

إن من أكثر الامتيازات التي يمكن أن توفرها هذه المخططات الست ، هو جعلنا أكثر قدرة على القيام بأحد الأمرين و المتمثلين في :

1 - التأليف الروائي ضمن هذا النوع من الكتابة الروائية الجديدة المسماة " رواية تيار الوعي " ، وهذا يتمثل إحدى المخططات الست ، وهذا طبعا يكون بعد تحديد المؤلف لأهم المعطيات الواجب توفرها لتمثل المخطط ، والتي تكمن في (الشخصيات - ذكرياتها - آمالها - خيبتها - أحلامها - انتصاراتها - هزائمها ... الخ) وهذه المعطيات هي بمثابة مجموعة غير منتهية تتموقع في محيط حلقة ودائرة الحوار الداخلي .

2 - تسهيل قراءة ومقاربة الخطاب الروائي الجديد المكتوب وفق أعراف " رواية تيار الوعي " ، فرواية " هوامش الرحلة الأخيرة " (**) مثلاً ، نجد صاحبها الكاتب الجزائري " محمد مفلح " قد اعتمد في تأليفها على معطيات عدة أشكال لخطاطة " الديمومة الزمنية " ، ومنها الجدول رقم (3) الوارد - طبعا ضمن سلسلة المخططات التي سيأتي لاحقا - ، حيث نجده (أي الكاتب) قد انطلق من المركز وهو النقطة الثابتة في كل المخططات والمتمثلة في حاضر الشخصية ولحظتها الآنية ، تلك اللحظة التي وصفها الناقد " عبد المالك مرتاض " - فيما سبق - أنها حلقة الوصل التي تجمع بين صيغتين زمنيتين هما (الماضي) و (المستقبل) ، وقد تمثلت تلك اللحظة الآنية في وصف الشخصية الرئيسية في الرواية " شخصية معمر " للحالة التي آلت إليها حياته بعد مضي سنوات من عمره ، يعتقد أو بالأحرى يجزم

(**) لقد علق عنها صاحبها " محمد مفلح " في كتابه " في تجربة الكتابة " قائلا : ((إنها تدخل في ضوء تجربتي الجديدة مع مراعاة روح القصة ، وهوامشها المرتبطة بالذاكرة ... وتتطرق الرواية إلى هموم عامل يعيش مع غربة فرضتها عليه ظروف الحياة القاسية ، ومنها العمل بالجنوب الجزائري)) .

على أنها مضت جزافا عكس ما كان يتمنى ويطمح وهذا ما اتضح في قوله : " أصبحت حياتي بسيطة لا معنى لها ، أعيشها بلا مبالاة ، تنساب الأيام الكالحة أمامي وأنا أتفرج على تفاهاتها ، مضت فترة الشباب التي ملأتها آمال جميلة ... الدنيا خدعتني ، أخطأت لما اعتقدت أنني قادر على إخضاعها لرغباتي المجنونة ، كل شيء تغير بسرعة عجيبة انقلبت اللعينة إلى حكاية مملة "(مفلاح، 2012، صفحة 5).

إن ما أظهره " مُجد مفلاح " على لسان شخصية " معمر " - وبالتحديد - في الصفحة الأولى يمكن اعتباره موقفا ذاتيا إزاء هذا الزمن المخير ، هذا الموقف الذي قد يتوافق - وإلى حد بعيد - في دلالاته مع تلك المفاهيم ، والتصورات التي كان قد قدمها ثلة من رواد الفلسفة والأدب والفيزياء ، وعلم النفس بشأن الزمن - والتي كنا قد أوردناها في مستهل هذا البحث - حيث أجمعت في مجملها واتفقت على نعت انسياب الزمن بالانسياب المخير والغامض ، والذي قد يوهك بأنك قادر على إيقافه ، أو حتى التحكم فيه لكن دون جدوى فالزمن سرعان ما يخيب ظنك ويصدمك بانفلاته وهروبه دون رجعة ، وهذا ما أراد " معمر " تأكيده في قوله : "... تنساب الأيام الكالحة أمامي ، وأنا أتفرج على تفاهاتها ، مضت فترة الشباب ... الدنيا خدعتني ، أخطأت لما اعتقدت أنني قادر على إخضاعها لرغباتي المجنونة كل شيء تغير ، بسرعة عجيبة انقلبت اللعينة إلى حكاية مملة ، وأصبحت فارغة فارغة . حركتها الآن دائبة لكنها تدب نحو هدف لا أحد يدره"(مفلاح، 2012، صفحة 5).

إن السأم الذي عبرت عنه شخصية " معمر " - وهي تفصح عن قمة عجزها عن فهم هذا الزمن - يكاد يكون ذاته " السأم " الذي تحدث عنه " بول فاليري " في كتابه المعنون بـ " الروح والرفض " قائلا : "هذا المرض الذي هو مرض الأمراض ، وهذا السم الذي هو سم السموم ، هذا السم المضاد للطبيعة كلها ، إنما هو ما نسميه بالسأم من الحياة ، إنه ليس بالملل العارض ملل التعب والكلال أو الملل الذي يمكن رؤية أصل جرثومته أو الوقوف على حدوده ، بل هو السأم الكامل ، السأم الخالص الذي لا يرجع منشؤه إلى سوء الحظ أو المرض أو الضعف ، ويرضى بتأمل أسعد ما يمكن من الظروف ، وأخيرا هو هذا السأم الذي ليس له مادة سوى الحياة نفسها ، وليس له سبب بعد ذلك سوى وضوح بصيرة الحي ، هذا السأم المطلق ليس في ذاته إلا الحياة عارية تماما ، إذا نظرت إلى نفسها بوضوح"(زكريا، د.ت، صفحة

78) إن أكثر ما يمكن فهمهم قول " بول فاليري " هو أنه ثمة شعور بالسأم في هذه الحياة ، غير أن السأم من الحياة نفسها هو أكثر ما يؤلم الإنسان ويهزقه ، كونه مجهول السبب فهو لا يرجع إلى سوء الحظ كما قال أو إلى المرض أو الضعف ، وهذا ما يجعل أمر الشفاء منه غير وارد ، فالألم الناجم عن السأم من هذه الحياة ، وهذا الزمن مستمر ومنساب كانسياب الزمن نفسه ، فما دام الزمن موجودا تبقى الحيرة من أمره موجودة ، والسأم نتيجة عدم فهمه موجودا هو الآخر .

لعل أولى هذه الذكريات في ذهن معمر تتجسد في ذلك الحدث المؤلم الذي كان وقعه شديدا على نفسيته ، حتى أنه كاد أن يحطمه لولا بصيص الأمل الذي كان يجد له صدى في قلبه بفضل كلمات أمه التي كانت بمثابة السراج الذي أثار بعض دروب حياته المعتمة ، وعن هذا الحدث المؤلم يقول " معمر " :
" ... أمي الأرملة لم تصدق ما سمعته من كلام عن موت والدي أكدت لي أن " جانو " قتله ، ولكنها لم تكن تعلم كيف ؟ ربما خنقه رجال " جانو " دفن في مقبرة القرية دون أن تعرف أمي الحقيقة ، كان الزمن وقتذاك غامضا يجري بهيمومه في كل الاتجاهات ، هذا الزمن العنيف لم يشفق علي ، أخذ طفولتي الشقية ، وفر داخل ذاكرتي المفجوعة ، لا أريد أن ألتفت إلى أيام طفولتي ، ذكرياتها حزينة مظلمة ، مازالت كالسكاكين منغرزة في القلب المرهق ... ولكن كلمات أمي ، نور قلبي المتعب ، أرشدتني إلى الطريق المنير ، فتسلحت منذ صغري بالشجاعة في انتظار لحظة المولد الحقيقي " (مفلح، 2012، صفحة 7)، ولقد كاد معمر يشهد هذه اللحظة - وبصورة واضحة - حقيقة واقعة - وذلك من خلال الحلم الذي رآه بعد اللقاء الذي جمعه بالفتاة " ساجية " ، تلك الفتاة الأنيقة التي فرضت نفسها عليه ، وذلك بإصرارها - غير المقبول من معمر - بمرافقته في رحلته عبر الشاحنة - وهو في طريق العودة الى عمله - ، غير أن الشجار الذي وقع بينها والذي حكم بنهاية الرحلة برفقة هذه الفتاة " الجميلة " وطردها من الشاحنة بسبب تحرشها به ، وعرض نفسها عليه ، إلا أنه ندم على طردها وتركها تهيم في تلك الغابة الموحشة والمظلمة ، والجو ماطر ، وذئاب البشر لن ترحمها و كل هذه الأفكار دفعته لأن يتراجع عن موقفه ويقرر اللحاق بها ، لكن هيهات أن يجد لها أثرا فقد ضاعت منه ، وانفلتت ، كما ضاعت الحياة والزمن منه قبل ذلك وانفلتا ، كل هذا جعل الحيرة تتسلل إلى قلبه من جديد ، لتترجم هذه المرة في حلم النوم الذي رآه

بعد وصوله الى " عين أمناس " ، والذي يسرد تفاصيله قائلا : " فغفوت قليلا ، ولكن الواقع المفزع لاحقني حتى في عالم الغفوة ، كانت ساجية تجري في بستان جميل وأنا خلفها ألث كالمجنون ، ثم دخلت ساجية المدينة ، وأمام العمارة الصفراء التي أسكنها وقفت وصاحت باكياً " النجدة .. النجدة .. أنقذوني من هذا المجنون " خفت أن تخرج زوجتي من الشقة ويفتضح أمري مسكت بذراع الفتاة وأمرتها أن تنصرف. رفضت أن تتحرك من مكانها . وضعت يدي حول عنقها وضغطت عليه بقوة فتدلى رأسها الصغير على صدرها الناهد ولفظت أنفاسها ، ثم سقطت على الأرض " (مفلاح، 2012، صفحة 41).

لقد عد هذا " الحلم " بمثابة نافذة صغيرة أمكننا فتحها من الاطلاع على بعض خفايا عالم المعمر الداخلي ، هذه الخفايا التي يصير على كتمها وعدم البوح بها غير أن ما سرده من أحداث وقعت له في واقع حلمة باحت بسره ، وكشفت المسكوت عنه والمتمثل في رغبته في البقاء مع ساجية التي رأى في جمالها الذي وصفه بقوله : " كانت تملك جمالا هادئا ، عيناها المكحلتان واسعتان جدا، الرغبة المبحوحة في قلبي تحترق ، وتحترق . من رماها في دربي الوعر ؟ " (مفلاح، 2012، صفحة 16)، الامل والسلوى الذي سيطر عنه ما لاقاه من هموم ومتاعب في حياته ، غير أنه سرعان ما عدل عن فكرته كونه رجلا متزوجا يرى في ذاته ذلك الرجل المخلص الوفي الذي من غير الممكن أن يخون أو يغدر كما فعل " جانو " بوالده الذي كان خادما عنده في الحقل ، وإن استرجاعه لهذا الحدث ، وأحداث أخرى للدليل واضح لتفسير ما كنا قد أوردناه من قراءة وتحليل للحلم ، ولتوضيح الأمر أكثر نورد هذا المقطع الذي يقول فيه معمر : " لقد طرأ علي تغير مفاجئ . ما هو ؟ ليس من عاداتي الإبحار في عالم التأمل . بدأت العمل في الصحراء بعدما تزوجت يمينة وأنا في المهجر . بقيت لها مخلصا . وها هي ساجية تقتحم وحدتي من حثها على ركوب شاحنتي الضخمة ؟ " (مفلاح، 2012، صفحة 24) ولقد عبر " معمر " في هذا المقطع عن ذلك التناقض الذي كان قد مر به في حلمه وهو يشعر بذلك التشتت نتيجة انجذابه مرة صوب حب " ساجية " ومرة صوب " الاخلاص لزوجته يمينة " ، هذا التجاذب الذي رأى أن ينهيه بقتل " ساجية " في " الحلم " ، وبطردها في " الواقع " وعند هذه النقطة ننهي سرد تفاصيل المخطط الاول للديمومة الزمنية في هذه الرواية .

في نهاية هذه الورقة البحثية ، يمكن القول إن المخطط الذي يعكس مقولة " الديمومة الزمنية " ، والذي تم تمثله في المنجز السردي الموسوم بـ " هوامش الرحلة الأخيرة " تحت شعار " رواية تيار الوعي " ، قد تم تشكيله (أي المخطط) وذلك انطلاقاً من التقنيات الأربع ، والتي اعتبرت بمثابة الثمرة الطيبة لجهود جبارة بذلها ثلة من رواد الفلسفة ، والأدب ، والنقد ، وعلم النفس ، ولقد عدت تقنية " الحوار الداخلي أو المنولوج " بمثابة النواة المركزية ، و العصب المتين الذي يقوم عليه هذا المخطط ، كون هذه التقنية تحيل - وبشكل مباشر - على بقية التقنيات الممثلة - طبعا - في "الاسترجاع"، و"الاستباق"، و"الأحلام".

نقول أن المخطط - وعلى الرغم من أهميته وفاعليته - في استظهار بعض الجوانب الخفية في حياة شخصية " معمر " من قبيل طفولته الشقية ، والمأساوية بسبب يتمه وفقره ، إلا أنه يظل قاصرا في استظهار جميع الجوانب الخفية في الوعي الداخلي لشخصية "معمر" ، لذا فإن ما قدمناه - من خلال هذا المخطط - لا يعدو إلا أن يكون شيئا نسبيا وتقريبيا ، بوصفه يعجز عن عرض ذلك السيل الجارف من الأفكار ، والذكريات ، والأحلام ، والطموحات ، وكل الحالات النفسية القابعة في ذهن شخصية " معمر " ، وهذا ما عبر عنه الفيلسوف " هنري برغسون " بقوله بأن الديمومة هي الزمن : "الذي يجعل كل شيء يتكون ...إنها الرؤية المباشرة للنفس بواسطة النفس ذاتها ... الديمومة إذن ترتبط بالحدس أو بالحياة الداخلية للشخص وبذلك تكون الديمومة نمو باطنيا وامتدادا لا ينقطع للماضي في حاضر يفيض على المستقبل"(التواتي، 1986، صفحة 120)، ومن الملاحظات التي يمكن رصدها ايضا - وبعد تمثلنا للمخطط السالف الذكر في بعض المقاطع السردية من الرواية - محل الدراسة - هو أنها اضحت تتسم بمعالم جديدة تجعلها جديرة بان تصنف ضمن الكتابات الروائية الجديدة ، وهذه المعالم قد حصرها الكاتب (محمد داود) في ثلاث نقاط هي : "الذاتية"، كونها (أي الرواية) تعرض وجهة نظر الشخصية الروائية (معمر) بدل وجهة نظر الكاتب (محمد مفلح) ، إضافة إلى هذه النقطة نجد " تحول الوعي إلى سلطة مهيمنة"، فالوعي - ههنا - يعطي الدلالة لكل عناصر الحكاية ويشكلها ، وكذا "الانتقال من الحدث إلى الانطباع " وهي ثالث هذه النقاط وأهمها.(داود، 2013، صفحة 48)، وقد بين الكاتب " صبري حافظ " الدور المنوط لهذا النوع من الحوار الداخلي ، وذلك من خلال كشفه عن

السّمات الفنية التي تطبع الروايات الذهنية لدى " نجيب محفوظ " في قوله : « نلاحظ التركيز على دور المونولوج الداخلي باعتباره وسيلة فعالة في كشف أعماق الشخصية وتعرية كل عجزها عن الإفصاح عما في داخلها من أحاسيس ورؤى أمام أسوار الواقع السميكة . واستعمال الضمائر الثلاثة في عملية القص الروائي باعتبارها وسيلة ناجعة للتنفيس الفني عن الضغوط والتوترات التي تعانيها الشخصية والتداخل الموحى في الأزمنة والذي يذوب كل الجدران الفاصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل وتقلص الأسلوب السردى إلى حد الضمور والتركيز على شاعرية اللغة ودورها...» (همفري، 2000، صفحة 60).

إن تظهر مثل هذه المعالم في رواية " هوامش الرحلة الأخيرة " - وبشكل واضح - لدليل قوي على أنها تمثل ذلك النوع المتميز للحوار الداخلي وهو " الحوار الداخلي المباشر"، والذي وضعه " روبرت همفري " بقوله : « هو ذلك النمط من المونولوج الداخلي الذي يمثله عدم الاهتمام بتدخل المؤلف ، وعدم افتراض أن هناك سامعا ، ... وهو الذي يقدم الوعي للقارئ بصورة مباشرة ، مع عدم الاهتمام بتدخل المؤلف، أي إنه يوجد غياب كلي للمؤلف من القطعة الأدبية ، فهو موجود فحسب بإرشاداته المتمثلة في عبارات "قال كذا"، و"فكر على النحو الفلاني"، كما أنه موجود بتعليقاته الإيضاحية» (التواقي، 1986، صفحة 122).

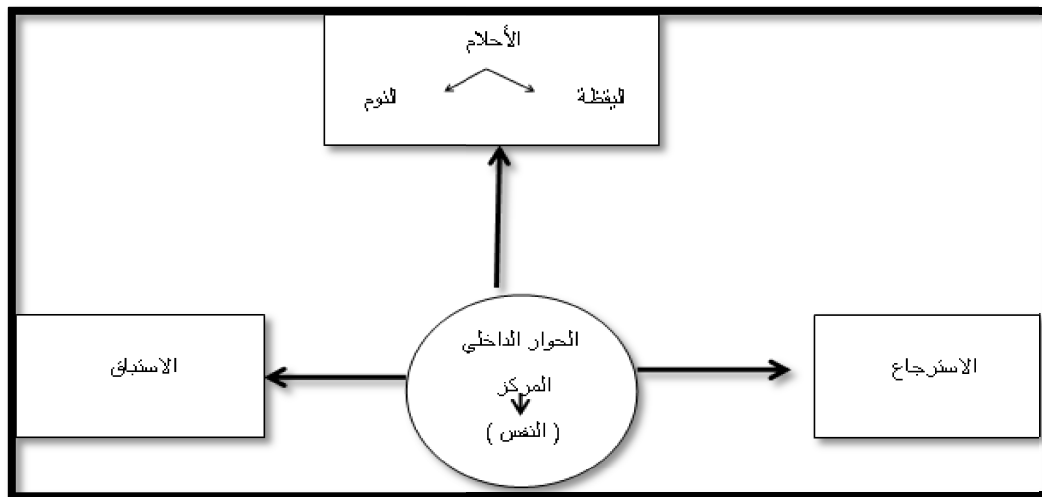
إن المتمعن في متن الرواية - محل دراستنا - يكاد يجزم على أن كل ما ورد فيها - تقريبا - ينسب إلى شخصية " معمر " الروائية " الورقية "، هذه الشخصية التي برز ظهورها - وبقوة - من خلال ما ورد من حوارات داخلية تضمنت في مجملها استرجاعا لأكثر الأحداث المؤلمة التي مر بها " معمر " والتي رسخت في ذهنه كذكريات حزينة يصعب محوها أو نسيانها .

الجدول 1: أهم مخططات الديمومة الزمنية في المنجزات السردية

المخطط الأول	المخطط الثاني
المخطط الثالث	المخطط الرابع
المخطط الخامس	المخطط السادس

المصدر: من إعداد الباحثة

الشكل 1: مخطط الديمومة الزمنية



المصدر: من إعداد الباحثة.

6. خاتمة:

ضع في خاتمة البحث تلخيصا لما ورد في مضمون البحث، مع الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل إليها، وتقديم اقتراحات ذات الصلة بموضوع البحث.

في نهاية هذه الورقة البحثية ، والتي حاولنا من خلالها عرض بعض ما تم رصده - من قبل بعض اقطاب العقل البشري في حقلي الفلسفة والأدب - عن ديمومة الزمن ، وانسيابه ، من مفاهيم وتصورات، ومخططات وتصنيفات تعكس الإحساس الداخلي به ، نكون قد توصلنا إلى جملة من النتائج، ونذكر منها :

1- القديس أوغستين هو أول من بدأ البحث في موضوع الزمن ، معربا عن فشله الذريع في نقله من محطة الوعي إل محطة الكتابة، وقد ظهر هذا جليا من خلال السؤال الذي طرحه ، والذي اتخذته الكثير من المنشغلين بالبحث عن الزمن بمثابة القارب الواجب امتطأؤه للإبحار في عالم الزمن المبهم .

2- إن طرق الباحثين لأبواب الزمن الثلاثة (الماهية ، ومقر الإقامة ، والتمفصلات) ، والعجز عن فتحها ، والولوج إلى بيوها ، لم يثن من عزيمتهم ، ويقلل من جهودهم ، بل دفعهم لرسم مخططات نسبية وتقريبية تعين على كشف النقاب ، وإزالة اللثام عن بعض خطوات انسياب الزمن ، وجريانه المخير من خلال اعتماد تقنية الحوار الداخلي كمحطة رئيسية والتي تحيل بدورها على محطات ثانوية من قبيل الاسترجاع ، والاستباق .

3- إن فهم هذه المحطات الأربعة الممثلة في (الحوار الداخلي ، الاسترجاع ، الاستباق ، الأحلام) ومن ثم رسم مخططات لديمومة الزمن ، يتطلب العودة لأهم المصادر التي تناولت هذه المحطات - بالشرح والتحليل - من قبيل كتاب " الاعترافات " للقديس أوغستين ، و " خطاب الحكاية " لجيرار جينيت ، و " تيار الوعي في الرواية الحديثة " لروبرت همفري .

4- يعد " مُجد مفلّاح " - وبحق - واحدا من أبرز الكتاب الذين أبدوا براعة ومهارة في استيعاب المخططات الست للديمومة الزمنية ، والقدرة على تمثيلها وتحسيدها في منجزه

السردى الموسوم بـ " هوامش الرحلة الأخيرة " الذي يمكن عده نموذجاً متميزاً لاحتواءه على أهم معالم الديمومة الزمنية ، كما نجده أيضاً قد أثبت بأنه لا وجود ، ولا حضور للزمن إلا مع الذات ، وحالتها النفسية الباطنية .

5- إذا كان الحديث عن الزمن قد بدأ مع سؤال أوغستين ، فإن ختام الحديث عنه - ههنا -

سينتهي هو الآخر بطرح جملة من الاسئلة ، لا سؤال واحد ، و أبرزها :

أ - متى ينتهي الحديث عن الزمن ؟

ب - ما الشروط ، والظروف الواجب توفرها لضمان نجاح عملية نقل الزمن من سطح الوعي إلى أرضية الكتابة ، كما هو دون أن يطرأ عليه أدنى تغيير ، ودون أن ينفلت منا ؟

ج - هل الفلاح في وضع مخطط قار وثابت لديمومة الزمن مرهون بابتكار محطات جديدة في محيط دائرة الحوار الداخلي ؟ أم أنه مرهون باستحداث علائق ، وروابط جديدة تربط بين المحطات السالفة الذكر (الاسترجاع ، والاستباق ، والأحلام) ؟

7. قائمة المراجع

- إبراهيم زكريا. (د.ت). مشكلة الإنسان. القاهرة - مصر: مكتبة مصر.
- ابن منظور. (د.ت). لسان العرب، المجلد الخامس ط1. بيروت - لبنان: دار صادر.
- أحمد أمين. (2012). فيض الخاطر . القاهرة - مصر: مؤسسة هنداوي.
- الزواوي بغورة. (2009). ما بعد الحداثة والتنوير - موقف الأنطولوجيا التاريخية - دراسة نقدية، ط1. بيروت - لبنان: دار الطليعة.
- القدّيس أوغستين. (2012). اعترافات ، الكتاب الحادي عشر ، ترجمة : إبراهيم الغري ، مراجعة : مُحمّد الشاوش . قرطاج - تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة".
- بسام خلف سليمان. (2013). مقال: الحوار في رواية الإعصار والمفئدة لعماد الدين خليل - دراسة تحليلية - . مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل -العراق، المجلد7، العدد13.
- جيرار جينيت. (1997). خطاب الحكاية - بحث في المنهج - ، ترجمة : مُحمّد معتصم ، و عبد الجليل الازدي ، وعمر حلي، ط2.

- رستم (ل). جويلية (2016) التلفزيون المصري: برنامج نجمك المفضل، نجيب محفوظ في لقاء مع الجمهور. القاهرة - مصر: قناة ماسبيرو.
- روبرت همفري. (2000). تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة: محمد الربيعي. القاهرة - مصر: دار غريب.
- عبد الحفيظ بن جلولي. (2008). الهامش والصدى، قراءة في تجربة محمد مفلح الروائية، ط1. الجزائر: دار المعرفة.
- عبد القادر راجحي. (2016). إيديولوجية الرواية والكسر التاريخي، ط1. برج الكيفان - الجزائر: دار النعمان.
- عبد المالك مرتاض. (د.ت). في نظرية الرواية - بحث في تقنيات السرد - وهران - الجزائر: دار الغرب.
- علي أسعد وطفة. (2021). الزمان صيرورة وماهية - إضاءة فلسفية - صحيفة المثقف، العدد 5582، الأردن.
- فاطمة الشيدي. (2011). المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب - دمشق - سوريا: دار نينوى.
- محمد داود. (2013). الرواية الجديدة - بنياتها وتحولاتها -، ط1. الجزائر: دار ابن النديم.
- محمد صابر عبيد وسوسن البياتي. (2008). جماليات التشكيل الروائي، ط1. اللاذقية - سورية: دار الحوار.
- محمد مفلح. (2012). رواية هوامش الرحلة الأخيرة، ط1. الجزائر: دار الكتب.
- محمود غنيم. (1993). تيار الوعي في الرواية العربية الحديثة - دراسة أسلوية -، ط2. القاهرة - مصر: دار الهدى.
- مصطفى التواتي. (1986). دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية " اللص والكلاب "، و " الطريق "، و " الشحاذ " . تونس: الدار التونسية للنشر.
- هنري برغسون. (1966). الفكرة والمتحرك ط63. باريس - فرنسا: المطبوعات الجامعية.
- يمنى طريف الخولي. (2014). الزمان في الفلسفة والعلم. مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.